

مستقبلي في الصورة التي تلائني
ولقد تمودت أن أفضى أيام
عطلة الصيف في مزرعة خالي وهي
مزرعة وضع فوق بابها الخارجي
رمز يدل على أنها ليست من
المزارع العادية ولكنها منحلة
كيلي التي تنتج ألطف أنواع
المسل في العالم

اكان مجبات خبها

(قصة من تحت جاذفة مائي جنبه) عن الإنجليزية
بسم الأستاذ عبد الحميد محمد

« لقد أحبها حب اليأس ، وكان
في مقدوره أن يفوز بها لو أنه قال
الحقيقة : حقيقة أمر الرجل الذي اختارته
زوجاً لها »

كنت و « سالي » و « بارني » رفاتي طفولة
وصبا، نعيش في بلدة صغيرة من بلدان النعمدين في شمال
انجلترا ، يحتوي بيوتنا شارع واحد ، ونلمب جماعة
في الخلاء الخرب وراء بيت « بارني » ونذهب معاً
إلى المدرسة . فلما بلغنا سن المراهقة لم يكن أحداً
يفترق عن صاحبيه

وكان « بارني » المخاطر بطبيعته ينتظر اليوم
الذي يستطيع فيه أن يقتني خطوات أبيه فيعمل مثله
في المباح ، وكأما بين طبيعته وبين عناصر الخطر
جاذبية لا تنقطع . أما أنا فكان أصرى على خلاف
ذلك ، أشمر دائماً بجمل شديد إلى ضوء الشمس
وإلى الفضاء الفسيح ، يكنى مجرد التفكير في المال
داخل الكهوف الظلمة للفائز في جوف الأرض
لأن يمتد الرغبة إلى أعماق نفسي

فكان من المقطوع به أن حياة العمل في مناجم
الفحم ليست هي الحياة التي أصلح لها ، وكان على
خالي « بارنيك » أخى أمي الأعزب أن يشكل

وفي هذه المزرعة كان يرى الإنسان في أية ساعة
من ساعات اليوم خالي « بات » منهمكا في العمل
وسط صفوف عديدة من خلايا النحل وعلى عيابه معالم
الحماسة واللذة التي ترى عادة على وجوه هؤلاء الذين
يحبون أعمالهم . فهو يعيش بين نحلته ويدرس طبائمه
وحركاته وبفهم أشد الزهور جاذبية له . فكان من
الطبيعي أن يسر خالي ويفرح كلما رأى مني اهتماماً
بعمله ورغبة فيه ، ولقد كان يقول لي حينئذ :

— ليس هناك ياولدي من عمل ألطف ولا أسح
من العمل في مملكة النحل ، فإذا أردت أن تقتني
خطواتي فاني أخذك في وصيتي بهذه المزرعة فانه
ليسمدني أن أعلم أن نحلي سيصبح من بعدى وديمة
بين يدي من بقدره وبجبه كما أحبه أما

ولقد كان خالي يعقب هذا الحديث بتعليمي كل
ما يعرفه من أمر هذه المخلوقات الصغيرة كثيرة
الحركة شديدة الطنين ، وكان يبصرني بالوسائل التي
أصرف بها العمل في الأسواق بأكثر ربح مستطاع ،
ولقد قدم لي من المؤلفات كل ما كتب في موضوع
النحل ، وكان أنفس ما أهداني في أحد أعياد البلاد
كتاب « حياة النحل » مؤلفه « مارتلنك »

أما « بارني » فكان شديد الاستخفاف بمطام

الدم ساخناً ، فلا عجب إذا نشأت أنا وبارني على حب رفيقة طفولتنا الصغيرة متنافسين ، في مودة ، على مصاحبتها للسارة

ولم يكن في نيتي قط أن أفضي أي وقت طال أم قصر ، في تجربة للعمل بالمناجم ، فلما مات والدي على أثر بلوغى سن الرشد طلب إلى خالي « بات » أن أحجبه إلى مزرعته ، ولكنني اعتذرت من عدم إجابة طلبه بأنني أود أن أفضي فترة قصيرة في تجربة للعمل في المناجم قبل أن أغادر موطنى ، فلمحت في عين خالي النقادة نظرة اللى فهم ما وراء هذا الاعتذار ، وقد قال :

— إنك لا تريد تجربة العمل في المناجم يا بني ولكنك تريد تجربة الوسيلة اللى بها تفوز بقلب « سالى »

ثم استأنف حديثه في بشاشة ولطف فقال :

— حسن يا بني ، إنها فتاة جميلة تستحق التعب ولكن لك فيها منافساً وبارني فتى لطيف وله طريق ناجحة في كسب قلوب الفتيات

وعلى أثر ذلك اتفقت مع والدة « سالى » على السكن في بيتها وذهبت للعمل في المناجم المظلمة ، ولكن الأحلام للبرافة اللى تنمر قلبى أنستنى ظلمة تلك المغاور فلم أبال بها . فلما رآنى « بارني » هناك لأول مرة نظر إلى نظرة غريبة وقال :

— لقد ظننت أنك قد عقدت عزمك على أن تركز مستقبلك حول خلايا النحل ؟ فرددت عليه :

— وهل مما يخالف القانون أن يغير الانسان رأيه ؟

فقال وعلى فمه ابتسامة عابسة :

وكان يقول لى في كثير من الازدراء والتحقير :

— وبك يا « وبل » ليس هذا من عمل الرجال ، فهلا احتذيت حذوى لتصبح رجلاً قوى البنية متين العضل ، فقد اعتزمت أن أشتغل متى كبرت في المناجم فلا تلبث عضلاتى أن تصبح مثل عضلات دنيس شلتون ، على أننى أستطيع الآن أن أصرع أى ولد في هذا الشارع ! فتعال أرك قوة ضرباتى وكان بارني يعقب هذه الكلمات بالتقدم نحوى قابضاً يده مهدداً ، فأراجع إلى الورا لأننى أكره القتال وللشغب ، وكانت « سالى » هى حاميتى التحصية ، فعلى الرغم من إعجابها كالطفلة الصغيرة بتحرش « بارني » كانت تقف بينى وبينه بجسمها الصغير وشعرها الأسود التموج وعينها الزرقاوين فتحول دون اعتدائه وتصبح به وهى تضرب الأرض بقدمها :

— دع « وبل » لا تتمرض له ، واعلم أننى لا أريد أن تكون مثل « دنيس شلتون » فكل إنسان يعرف أنه ليس إلا عريداً مشاغباً فكان « بارني » ينجل من كلماتها ويستند بأنه لم يقصد إلى أكثر من المازحة على صورة ما

على هذا نشأنا منذ عهد الطفولة حتى إذا بلغ بنا الزمن نهاية الحلقة الثانية أصبح « بارني » فتى طويل للقامة عريض الأكتاف أسود الشعر أسمر الجلد خبيث النظرات مستهتراً بالفتيات . أما أنا فكنت ترابى الشعر نحيف الجسم خجولاً متحفظاً شديد الميل إلى حياة الريف الهادئة مبغضاً حياة المدن الصاخبة

ونمت « سالى » شابة ناهداً وكانت أجمل فتاة يبيض بحبها قلب الرجل ويبعث روحها في رأسه

في النجم أحدهما إلى جانب الآخر ، فإذا انتهينا من عمل اليوم الشاق عدنا إلى دارينا مترافقين ، ولكننا لم نكن نشير قط بكلمة إلى الفتاة التي أحببناها كلانا حباً مبرحاً . ولقد كنت أعلم من أمر « بارنى » أنه لن يتردد في مقابلة أى إنسان يمسى بأهون كلمات الاساءة ، وأنا من ناحيتى كنت أضع « بارنى » من نفسي موضع الأخ الشقيق ، ولكننا في طبيعتنا كنا مختلفين اختلاف النهار والليل

كان « بارنى » مغرمًا بالحياة المرحية ولم يكن ليمتنع أن يشرب خمرًا من حين إلى حين ، وكانت كثيرة تلك الليالى التي قضاهما في حانة « الأسد الأحمر » أبهج حانات المقاطعة

تعود « بارنى » الاكثار من زيارة حانة « الأسد الأحمر » ولم تكن هذه الزيارات لمجرد إطفاء شهوته من الخمر ولكنه كان يتمتع نفسه بقضاء بعض الوقت في صحبة « تس » فتاة الحانة ذهبية الشعر ، ولكنه بعد أن بدأ يتوود إلى « سالى » هجر « تس » وحانة الأسد الأحمر ، وقد اكبرت منه هذا التصرف الحكيم . فلقد عرفت أن جميع الرجال على التقريب قد سلكوا الطريق المروج وقتانًا ، ولكن كان جيلًا منه أنه الآن سار في الطريق المستقيمة الضيقة

على أننى لم ألبث أن تلقيت الصدمة التي بددت كل أحلامي وضمضت جميع آمالى . ففي صباح أحد أيام الآحاد لم أكده أعود مع « سالى » إلى دارها بعد أداء الصلاة الأولى وأقف معها برهة على عتبة الباب نستنشق للنسيم اللين حتى مر بنا « بارنى » في طريقه إلى الكنيسة لأداء الصلاة الثانية ، فلوح لنا بكفه في الهواء واستمر في سيره ، فلما تلفت إلى

— إنك لم تغير رأيك يا « ويل » فالحقيقة أنك وجدت قليلًا من اللسل هنا فسألته متحدثًا :

— وإذا كنت قد وجدت فإذا في هذا ؟

— فحقد بارنى في عيني وابتم ثم قال :

— اسمع يا « ويل » لقد كنا أنت وأما دائماً صديقين مخلصين ، وأنا أود أن تستمر هذه الصداقة بيننا ، ولكن يجب أن تتفاهم فإن أعرف أنك تحب « سالى » ، فليكن ، ولكننى أنا أيضًا أحبها ، وسأبذل كل مايسمه جهدي وقوتي في سبيل الفوز بها ، وإن أنتهى عنها إشاراً لك أو لأى رجل آخر على نفسى

فقلت وقد مدت يدي فتناولها بارنى مصاحفًا :

— وهذا هو شأنى أنا أيضًا

فقال بارنى :

— أرجو أن يفوز بها خير الرجلين كما أرجو

ألا يقسو شعور أحدهما على صاحبه :

كانت حياتنا بعد ذلك معركة بين « بارنى » وبينى إن تكن قاسية في مظهرها فقد كانت سليمة الطوية في جوهرها . على أن موقف المسكينة « سالى » بيننا قد أصبح موقفًا غاية في الدقة ، فقد كان ما في نفسها من الود لساكنينا متعادلاً ، وكانت تبغض أن ترد لأحدهما طلبًا إذا هو دعاها للخروج معه

ووقف رفاقنا في النجم على طبيعة ما بيننا من تنافس ، وسمعت أن بعضهم قد تراهن على أينا يفوز بالفتاة

وعلى الرغم مما كان بين « بارنى » وبينى من تنافس في الغرام بقيت روابط الصداقة بيننا قوية لا يؤثر فيها مؤثر من حقد أو ضغينة . كنا نعمل

وأخرى يسلك حلقه ليقول شيئاً ولكنه كان بعد التفكير بفضل السكوت فلا تخرج الكلمات من بين شفثيه . ولقد كنت أما أول من فض هذا السكوت فقلت متصنعاً الانسراح :

— أظنني يا « بارني » سأغادر هذا المنجم بعد

قليل فلم يبق لي هنا ما أحرص عليه

فقال صاحبي في صوت أجش :

— إني لآسف لذلك يا « وبل » والذي أرجوه

ألا يقسو شمورك نحوي

فضحكت ضحكة مقتضبة وقلت :

— لك أن تثق أن شموري نحوك إن بتغير ،

فان « سالي » تحبك وهذا هو كل ما في الأمر ،

تغير الرجلين هو الذي فاز يا « بارني » ولا تكن

أما أول من يهينك

— أشكر لك من أعماق قلبي هذا للشعور

للكرم فأنت خير صديق عرفته ؛ وإنه لبؤلني أن ينتهي

الأمر إلى هذه النتيجة

— لتنس ذلك فلعل الخير فيما حدث

اتفق الخطيبان على أن يمقدا الزواج في الشهر

المقبل ، ووعدت بعد شيء من التردد أن أتي

بالبلدة إلى أن تنتهي حفلة الزفاف . على أنني بعد

أن ضاعت جميع آمالي قد أصبحت راغباً في أن أترك

المنجم في أسرع ما أستطيع من الوقت . وكان خالي

« بات » قد كتب إلى يقول إن سمته تسير في طريق

الانحدار وإنه أشد ما يكون حاجة إلى المساعدة

للمعالجة . ولكن « سالي » ألحت عليّ في أن أتي

إلى يوم زواجها ، فلم يسمني إلا قبول رجائها . ولكن

اغتنبت في السنوات التي أعقبت تلك الأيام بقبول

ذلك الرجاء

سالي رأيت عينيها تتبعان قوامه الطويل وهما تشعان يبريق لطيف وعلى فمها ابتسامة وديمة . فأحسست كأن نفسي قد احتبس في حاقى وكان قلبي قد تحول صخوراً يشغل صدرى

وقلت في كثير من التلطف :

— إذن هذه هي الحقيقة يا « سالي » ؟

فنظرت إلى جانلة وقد ارتسمت الشفقة في أعماق

عينيها الزرقاوين وهي تهز رأسها وتقول :

— بؤلني يا « وبل » أن أقول أن ليس في العالم

إنسان آخر أوده وأحترمه كما أودك وأحترمك ،

ولكن ...

فأنمت عبارتها بقولي :

— ولكنك تحبين بارني

فهزت رأسها مرة أخرى وقالت في صوت

لا يكاد يسمع :

— أظن أنني كنت دائماً أحب « بارني »

فتناولات يدها وضغطتها بين يدي وقلت :

— لقد فهمت يا « سالي » فهو رجل لطيف

وسيكون لك زوجاً صالحاً ، وإنني لأتمنى لكما جميعاً

كل ما في الدنيا من سعادة

فقلت :

— شكراً لك يا « وبل » وإنني ...

ولكنها لم تستطع أن تتم جلستها فضغطت يدي

وجرت داخلة إلى البيت ؛ ولم ألبث أن أسرع

أنا الآخر في الدخول ولكنني شمريت بأن ساقى قد

أصابها من الثقل ما أصاب قلبي

وفي اليوم التالي بدأ التوتر بين (بارني) وبينى

في أثناء العمل ، ولم يكن لدى أحدهما الكثير مما يفضي

به إلى صاحبه ، ولو أن « بارني » كان ما بين فترة

وألفها متدهورة على الأرض، وبدون أن أفوه بكلمة أخرى التفت إلى « بارنى » الذى كان ينظر إلينا نظرة بلهاء فتأبطت ساعده فى شدة

وتخيرت الطرقات المظلمة وقدرته مسرعاً إلى البيت، وهناك أرقدته فى فراشه فهمهم بضع كلمات جمعت بين الشكر والتبرم، ولم يلبث أن استغرق فى النوم قبل أن أخلع نعليه ووقفت لحظة أنظر إليه وقد اضطرب رأسى بالانفعالات المخلطة

إذن هذا هو الرجل الذى سيتزوج من الفتاة التى أحببتها ! أيمكن بمد كل هذا أن يسعدهما ؟ وماذا تكون الحال إذا تكرر مثل هذا الحادث بمد زواجهما ؟ ومن الجائز جداً أن يتكرر ! أيجب أن تقف « سالى » على ما حدث ؟ وإذا عرفت، ألا تفسخ الخطبة لشمورها بما فى عمل خطيبها من إهانة لها وتحقير ؟

دار رأسى بهذه الأسئلة وبكثير غيرها، فأغمضت عيني وتمثلت « سالى » فيما تنزهى إليه حالها فى السنوات المقبلة، وهى تماشر « بارنى » وترقبه إذ يعود كل ليلة إلى البيت سكران، تنألم لملها أن هناك نساء غيرها يشغلن مكاناً من قلبه ؛ ومن المحتمل أن تكون حياتهما إذ ذاك حياة فقر مدقع

لم تكن الصورة التى تمثلها صورة مبهجة ففتحت عيني ونظرت إلى الرجل النائم، وساءلت نفسى : أيجب أن أخبر « سالى » بما رأيت ؟ ألا يكون فى ذلك منجأتها من آلام المستقبل ؟

وسمعت « بارنى » يهمهم فى نومه : « يالك من صديق طيب القلب يا ويل ». فحلت هذه الكلمات عقدة لسانى وقضت على موقف للتردد . فقلت وأنا أشعر بالتخاذل مكرراً عبارته :

تركت عملى فى النجم قبل يوم الزفاف بأسبوع واحد . وذهبت « سالى » إلى أبرشية أوكلاند لتزور صهرها ولتبتاع جهاز العرس ، ومضى يومان لم أر فيهما « بارنى »

وبعد يوم قضيته فى إعداد متاعى للسفر اعترمت أن أريض ماشياً ففادتنى قدساي عن غير قصد إلى الطريق التى تمر مباشرة وراء حانة الأسد الأحمر . وحمل الجو إلى أذنى ضجة نزل الحانة وضحكهم ، ثم فتح الباب الخلفى وخرجت منه امرأة تسند رجلاً يسير إلى جانبها مترنحاً غملاً . فوقفت فجأة وقد تولانى الدهول والغضب لأن الرجل لم يكن غير « بارنى » وكانت رفيقته « تس » فتاة الحانة الطروب . ووقع نظرى عليهما تجذب وجهه إلى وجهها ثم التفت شفاهما فى قبلة طويلة ملتبة

فارت نفسى لهذا المشهد فخطوت نحوها وأنا لا أكاد أدرك ما أفعل ودفعت المرأة جانباً فى كثير من الخسونة

فقبض « بارنى » كفه كما لو كان معزماً أن يضربنى وقال فى لفظ متناقل :

— ماذا تعنى بمملك هذا ؟

فأجيبته فى لهجة الأمر :

— سه وهيا إلى البيت قبل أن يراك أحد ويخبر « سالى »

فلوت « تس » أصابعها فى شكل وقح وهزت يدها فى وجهى وهى تقول :

— هذا « لسالى » أما أنت أيها الشاب فاهم بشؤنك الخاصة . وأما « بارنى » فسيقى مى

وهاجتنى حركة الفتاة فسدت قانون اللياقة فى معاملة للنساء ولكنها لكمة أصابت فيها المدهون

المنجم أوشك ما فيه من الفحيم أن يستنفد ، فكان من جراء ذلك أن دفن بعض عمال ذلك القسم أحياء ، وأن حيل بين البعض الآخر وبين طريق الخلاص .

وكانت النسوة يمين متوسلات إلى الرجال أن يتخذوا أقاربهن ، وكان الرجال قد شرعوا بالفعل يؤلفون من أنفسهم جماعات إنقاذ بإرشاد « بيل هانتج » أحد رؤساء العمال ، وكان الرجل يعرفني أنا وبارني منذ كنا طفلين ، ومنه علمت أن صديقي بين المنكوبين وقال الرجل أن ليس هناك من يعرف ما أصاب العمال فقد يكونون أحياء وقد لا يكونون ، وعلى كل حال يفرض أنهم أحياء فهناك خطر اختناقهم بالغاز فيجب أن نعمل مسرعين لانقاذهم .

ودون أن أنبس بينت شقة انضمت إلى إحدى الجماعات المتطوعة للانقاذ وعملت معهم بأقصى ما في مقدوري من جهد ، وكنا جميعاً متجهمين نعمل صامتين نسال الله ألا يذهب مجهودنا عبثاً .

قضينا في العمل ثلاثة أيام وثلاث ليال لم يكن ينقطع فيها العمل إلا لحظات ننامها غراراً ، وكنا كلما توغلنا في المنجم أقننا عمداً ومساند خشبية حدوث انهيار جديد وكنا نعمل صامتين ، فلم يكن لأحد منا ما يقوله وقد عرف كل مهمته . وما أنسى هذه للساعات الأخيرة التي قضيتها في المنجم مع هؤلاء الأبطال الصامتين الذين أفقلت أفواههم ونعلقت جباههم بما ارتسم عليها من أمارات للعزم والجهد الجبار .

وكان الانسان يسمع ما بين فترة وأخرى أحد الرجال يصيح « هيلو » « هيلو » عسى أن تصل أصواتنا إلى هؤلاء الساكنين الذين انطبق عليهم

« نعم ، يالك من صديق طيب القلب يا وبل ... إنك لرقيق الشمور يا وبل » فقد كنت أعلم أن ما بيني وبين بارني من ولاء وصداقة سيبقى سره بآمن في صدري . وانصرفت بعد أن أحكمت عليه اللغطاء .

وجدت « سالي » في البيت عند عودتي فلم أقف معها إلا ربما رددت تحيتها وأخبرتها أن بارني بخير إلا من تعب للعمل الذي ألزمه الرقاد مبكراً ، ثم صعدت إلى مسكني حيث قضيت ليلة مشردة للنوم لم أخاطب بارني بعد تلك الليلة ، ففي اليوم التالي بينما كانت « سالي » تربي ما اشترت من أرشية أوكلاندا استمداداً للرمس اخترقت سكون الصباح ولولة جددت لها قلوب كل أم وكل زوجة وكل حبيبة في البلدة ، فقد كانت رنتها منبئة عن وقوع كارثة في المنجم ، فقبضت « سالي » على ساعدي وقد هرب كل أثر للدم من وجهها فأصبح يشبه وجوه الأموات . وقالت في جزع : « بارني ... إني لأشعر بأن فاجعة قد أصابت بارني » . وكانما قد سمرت قدماي في الأرض فوقفت محملاً فيها بسني حتى شمريت يديها تدقان صدري وقد أصابتها نوبة عصبية فصرخت بي :

— لا تقف هكذا ناظراً إلى يا « وبل » ... إني لأشعر بأن مكروهاً قد نزل ببارني ... فهلا تفضلت فعملت شيئاً ...

فاندفعت من البيت واندججت في الجوع التي كانت مسرعة في طريق المنجم .

وكان كل إنسان يتساءل : ماذا حدث ؟ ولكن لم يكن أحد يدري شيئاً ، حتى إذا وصلنا إلى المنجم علمت أن انفجاراً حدث فسد المدخل إلى قسم من

حتى إذا انتهينا من توديعهم الوداع الأخير ، شرعت
أعد عدتي لمغادرة البلد قاصداً إلى مزرعة عمي .
فقد أصبحت بمد ذلك الحادث أشد رغبة في الاعتماد
عن المنجم ، وقد يبدو غريباً أنني لم أشعر بشيء من
الأمل في الحصول على « سالى » بمد أن نزل للقضاء
بخطيئها « بارنى » ولكن لا غرابة في ذلك فقد
عرفت من أخلاق « سالى » ما أقنعنى بأنها من
النوع الذى لا يجب غير ضرة واحدة ، فالوقت وحده
هو الذى يخفف من آلام قلبها ، فما كان ليخطر لي
على بال أن تصير الأمور إلى ما صارت إليه عندما
ذهبت إليها لأودعها .

وجدتها جالسة بجوار النافذة تنظر إلى الفضاء
الذى كانت هى وبارنى وأنا نقضى فيه ساعات لهُو
ومرح تمدونا السعادة وعذب الأمانى ، فلما رأته
نظرت عند دخولى وقد ارتسمت على شفيتها
ابتسامة قارة .

فلما أدنيت أحد الكراسى إلى جانبها وجلست
عليه قالت متنهدة :

— أظنك جئت لتلقى إلى بكلمة الوداع ؟

أجبت :

— نعم فاني لأشعر أن ليس هناك من شيء

أستطيع أن أعمله الآن

فقلت في كثير من الرقة :

— إنى لأحسدك ، وما أشد رغبتى في أن

أبتعد أنا أيضاً عن هذا المكان . نعم أود لو أستطيع

الذهاب فلا أعود أبداً . إنك ذاهب لتميش حيث

النور والهواء وحرارة الشمس . أما أنا فسابقى هنا

حيث لا يوجد غير الذكريات السوداء

وهنا غص صوتها فلم تستطع المضى في حديثها

المنجم فيقوى ذلك في نفوسهم الأمل في الحياة .
ولكن أصواتنا كانت تذهب هباء في جوف هذه
المقبرة الخيفة .

وكان أشق شيء على نفسى أن أرى وجه
« سالى » الحزين وهى تسألنى كلما خرجت من
المنجم عن نتيجة بحثنا ، فكانت كلمات التشجيع
والعزاء التى أرددها عليها لا تصادف منها غير أذنين
صباوين ، وهى جالسة تشخص في الفضاء كالماخوذ
تتحرك شفنها في صمت مبتهلة إلى الله .

وأشرق صباح اليوم الرابع صافياً وضاء .
وكان اليوم الذى حددنا قد زواج بارنى وسالى ، ولكنى
كنت أعلم أن هذا الزواج لن يكون ، فقد اقتربنا
من البقعة التى كان يشتمل فيها هؤلاء النساء حين
انفجار المنجم ، ولم يكن هناك أى أثر للحياة في تلك
البقعة المشثومة ، فما شككنا ، وإن لم بصرح أحداً
بما شعرنا به ، في أن الموت قد حصدهم جميعاً .

وصلنا آخر الأمر إلى الرجال وكانوا سبعة عشر
وجددهم قد سحقوا سحقاً فقد أصابهم الضربة
القاضية قاسية عنيفة . فبالها من ساعات هول تلك
التي أخذنا ننقلهم فيها الواحد بمد الآخر إلى خارج
المنجم ، فكانت قلوبنا وأقدامنا تتناقل كلما اقتربنا
من مدخله . وبالهول اللحظة التى وقع نظرى فيها
على بارنى فتمثلته في رقده التى تركته عليها في آخر
ليلة رأيت فيها ، وكأننى أسمع كلماته الأخيرة : « يالك
من صديق طيب القلب ياويل » . ما أقسى للقدر
وما أتمس هذين الحبيين اللذين أصابهما بهذه الضربة
الفاتلة ! لقد كدت أختنق حزناً في ذلك الموقف
الرهيب ...

دفنا موتانا وأقمنا عليهم صلاة جامعة في الكنيسة

كله منحصراً في الشفقة الشديدة والرغبة في المساعدة. وإذا كانت سالى من الطراز الذى لا يحب إلا مرة واحدة فأنا أيضاً من ذلك الطراز ، وعلى الرغم من كل ما حدث كنت أعبدها . وهذا هو السبب فى أنى عند ما كنت أزرع أرض الغرفة ذهباً وجبة فى صمت كانت فكرة واحدة مستولية على رأسى . لقد أبدت « سالى » رغبتها فى أن تترك البلدة ، وإنه ليسرنى أن آخذها منى بأى نمى كان . إذن لقد وضع كل شيء وضوح ضوء النهار ، فركمت إلى جانبها وأفضيت بكل ما خطر لى ، قائلاً فى لهجة الجدد والتحمس :

— اصغ إلى يا « سالى » ! إنك لن تستطيعى البقاء هنا لمواجهة مخزسات للناس فلتقبل مساعدتى — وكيف ؟

— تزوجى منى فشمقت « سالى » وابتعدت عني وقد بدت عليها الدلة ولكنى اندفعت أقول فى غير ترو :

— إنى لأعلم ما لا بد أن تشمرى به حبال هذا للمرض . ولكن ألا ترين يا عزيزتى أن هذه هي الوسيلة الوحيدة ، فأنت زوجة لى تستطيعين أن تصحبينى إلى المزرعة دون أن يكون هنا ما يدعو إلى علم أحد بأمر الطفل . ألا ترين أن هذا هو الشيء الوحيد المقول الذى يمكن عمله ؟ وما أشك فى أنه لو تبسر أن يعلم بارنى بهذا الأمر لاستطاع أن يدرك معناه

— أتقدم على هذه التضحية من أجلى ، طاماً بأننى لن أستطيع أن أقدم لك شيئاً مقابلها ، طاماً كذلك أن لا أمل فى شيء على الإطلاق ؟ ثم أنت ترغب فوق ذلك فى أن تطلق اسمك على ابن رجل غيرك ؟

وانهمرت الدموع مطلقاً من عينيها ، فطوقت كتفها بمساعدى مواسياً وقالت :

— تشجى يا « سالى » وإنى لأعلم مبلغ ألمك من خسارتك الفادحة ولكن اجتهدى فى أن تتمزي فنظرت إلى بمينين منهورتين بالدموع وقالت فى تأن :

— أأظلمك يا « ويل » على سر لا تعلمه ؟ إنى لأعلم ألمك سديق وفى مخلص وأن حكمتك على لن يكون قاسياً . وإنى لشديدة الحيرة والاضطراب فنظرت إليها فى دهشة ، أسائل نفسى : ترى إلى أية غاية ترى ؟

ومضت فى حديثها تقول :

— إن حزنى على « بارنى » ليس إلا نصف للسبب فيما أشعر به من حيرة واضطراب ، فبعد سبعة أشهر سأصبح أمّاً . وهذا هو السبب الذى حملنى أنا وبارنى على أن نستعجل يوم زفافنا فنحدده بعد أيام قلائل من إعلان خطبتنا . أما الآن ... فأنى لا أجد حتى الاسم الذى أسمي به طفلى . أواه يا « ويل » ... ماذا عماى أفعل ؟

إذا قلت إنى شعرت عند سماع كلمات « سالى » كأننى قد سمعت ، كنت متطلعاً فى التفسير . فما كنت لأحلم بأن أسمع ذلك الذى سمعت ، ولم يكن فى مقدورى أن أصدق له لأول وهلة !

على أنى أجهدت نفسى فى امتلاك عواطفى ، فقد كانت للفكرة التى طفت على غيرها فى رأسى هي أن « سالى » واقفة فى حرج شديد وأنها أشد ما تكون حاجة إلى أن أعينها فى شدتها . ومن الغريب أنى فى تلك اللحظة لم أشعر فى قلبي بشيء من الضيق أو الحقد على « بارنى » ، فقد كان شعورى

فأجبت :

— ليس فيها أفضل تضعية على الإطلاق ، فأننا
مستشرق في إنشاء بيت بأوى كلامنا ، وما أطلب
شيئاً غير ذلك ، فإذا شعرت يوماً ما بأن في قلبك
شيئاً من اللطف على فساشر عندئذ بأنني قد كوفئت
بمائة ضعف لما فعلت

فلم تستطع « سالي » أن تتكلم وأدارت وجهها
عني ولكنني أدركت أنني قد نجحت فيما رميت إليه
وشمرت أنني في هذه اللحظة الحرجة كنت أسعد
منى في أي وقت مضى من حياتي

وبعد أسابيع قليلة وصلت و « سالي » إلى
مزرعة خالي بات الذي امتلأ قلبه فرحاً باصطحابي
عروسي منى ، وقد بذل منذ اللحظة الأولى كل
ما في جهده ليشمرها بأنها في بيتها ، وأخيراً عندما
أصبحت حالة الحمل أكثر وضوحاً عني في أسلوب
رقيق بأن يخفف عنها عبء العمل في البيت . وكان
إذا لاحظ مرة أن العلاقات بيني وبين زوجي غير
طبيعية تجنب في حكمة أن يقول شيئاً يتم عما لاحظته
وإنني لوائق أن « سالي » لم تندم قط على قبولها
الزواج منى ، فقد أحببت الزرعة ، وكان يبدو عليها
بعض الأحيان أنها تشمر بكثير من السعادة ، ولو أنها
أصبحت نادرة الابتسام . ولقد كان شاقاً على نفسي
أن أكون قريباً منها محباً لها ومع ذلك لا أجرو
أبدأ على أن أسهرها . ولكنني صبرت مؤملاً
ألا يبعد جداً اليوم الذي تقبل علي فيه عن رغبة
ورضا

وقلت في نفسي : إن الحال لا بد أن تتغير بـ
أن تضع جنينها ، وستمود حياتها سيرتها الطبيعية
يوم يصبح لها ولد تحبه وتسهر على العناية به ،
فستعود عندئذ تدريجاً أن تقبل علي أنا أيضاً
ولما شمرنا أنا وخالي بأن عمل البيت قد أصبح

كثيراً على « سالي » ، بـمد أن تقدمت حالها ،
استأجرنا فتاة من أهل القرية لتساعد في المطبخ
وفي الأعمال البيتية الأخرى ، وقد برهنت هذه
الفتاة واسمها مارجري جاميسون أنها تساوى ثقلها
ذهباً ، وكانت فتاة وضاعة الجبين جذابة ، محبة
للمعمل أنيسة بيت وجودها في البيت روح البهجة
والانشرار وقد توطدت روابط الصداقة بينها
وبين سالي

وفي ذات صباح وجدت مارجري في المطبخ
يبدو عليها أثر الحيرة والاضطراب ، فلما سألتها عن
سبب ما بها أجبت :

إن الذي يشغلني هو أمر امرأتك ، فانه يبدو
عليها أنها في حال غير طبيعية . إنها لا تتكلم أبداً
عن الطفل المنتظر . فهي تجلس شاخصة إلى الفضاء
كأنها تحلم ، وقد قالت لي أمس : « مارجري ، أتبقين
هنا بعد ذهابي لتعني بأمر ويل ؟ إنني لأرجو منك
أن تفعل ذلك »

فقلت في خشونة :

— كلام فارغ ، إنها غير مالكة نفسها ، فهذا
أول طفل لها ، وكل ما عنك أنها خائفة
وعلى الرغم من كلامي هذا شعرت بشيء من
القلق والاضطراب

ولد الطفل في ليلة قارسة للبرد من ليالي الشتاء
وإذا أحست « سالي » بالآلام الأولى ساعدتها
مارجري في الايواء إلى فراشها ومضيت أدعو الطبيب
وكانت ليلة هول وجزع . فنذ اللحظة التي وصل
فيها الطبيب أحسست بتوتر غير طبيعي بـملا جو
البيت ، فقد كانت مارجري تروح وبجيء صفراء
مقفلة الشفتين ، بينما كان الطبيب يؤدي مهمته وقد
ارتسم للقلق على جبينه واضحاً

وبعد فترة كأنها الأبد نزل الطبيب إلى غرفة

واسم « بارنى » على شفيتها

وقفت كالحالم منحني الرأس عند ما غيبوا نعش « سالى » فى القبر غير مستطيع أن أصدق أنها قد ذهبت حقاً . على أن الحقيقة لم تلبث أن صدمتني بقوتها المرعبة عندما وصلت البيت عائداً من جنازتها ، فقد كنت جالساً وحدى فى الغرفة الأمامية غارقاً فى الذكريات الحزينة إذ أيقظنى من غيبوبتى بكاء ضعيف ... الطفل ... وكان الحزن قد أنسانى وجوده فى هذا العالم ، فشيت منثداً ونظرت إلى ذلك المخلوق الأحمر الوجه الذى تركته أمه فى رعايتى . إنه ابن بارنى ! كيف أستطيع أن أشرح أو أصف الانفعال الذى تملك نفسى حين نظرت إلى الوليد الذى يبكى ؟ لقد تجسمت البغضاء كلها والحزن الكمين فى نفسى فتجسمت كرهاً مطلق المنان نحو ذلك الطفل . لقد حظى أبوه بالفتاة التى أحببتها وخانها ، ثم هى قد دفنت حياتها ثمناً لاخراج ابنه إلى عالم الوجود

وبكى للطفل مرة أخرى ، فأنجيت عليه وقلت فى خشونة : « أنت ، إنها من أجلك ماتت ، وما ينتظر منى مقابل ذلك إلا أن أقتلك ! ها ! ها ! يا لها من مهزلة ! حقاً إني أبغضك ، أيها الطفل اللبكي الحقيير ! » ولم تلبث ثورة الغضب والحزن التى أفقدتني كل عامل من عوامل العقل أن أحالتني رجلاً مجنوناً تملأ قلبه شهوة الجريمة . سأنتقم من القدر بقتل المخلوق البرى الذى كان السبب فى كل هذا المصاب وأنجحت يداى فى بطاء إلى رأس الطفل وأطبقت أصابعى على عنقه ، وبدأت أضغط ذلك العنق الصغير متأنياً وأنا أضحك ضحكا وحشياً كلما ازدادت عينا الضحية إجحاظاً .. ابن بارنى ! أظن أنه يستطيع أن يتنفلى ؟ سأريه ! أن « ويل للصديق الطيب القلب » لن يكون الأنحوكة مرة أخرى

للطعام حيث كنت جالساً أنا وخالى بات منتظرين فلما رأته سأله فى حال عصبية :

— أهناك شيء غير سار يا دكتور ؟

فهز رأسه كثيراً وقال :

— أخشى أن يكون ذلك يا « ويل » إننا

نعمل كل شيء ممكن ، ولكن إصرأتك تسلك سلوكاً غريباً ، فلا هي مكترثة بأن تعيش أو تموت ولا هي تساعدنا فى أداء مهمتنا بأية صورة من صور المساعدة وهى أحياناً تهذى وتكرر الهتاف باسم بارنى

ثم جاءت مارجرى فدعت الطبيب الذى خرج وتركنى وخالى ينظر أحداً إلى الآخر فى صمت مشبع بروح الجزع . ولم تلبث أن سمعنا بكاء رقيقاً ينبى عن قدوم مخلوق جديد إلى عالم الكفاح الذى نعيش فيه

وفى مطلع النهار كنت ناعساً فوق كرسي إذ أيقظتنى نقرة خفيفة على كتفى فرأيت مارجرى واقفة أمامى تقول هامة :

— يريد الطبيب أن تسرع فى الذهاب إليه

فاندفعت صاعداً للسلم فى سكون وهناك لقينى

للطبيب على باب غرفة سالى ، وقال يحذرنى :

— اجتهد فى أن تكون هادئاً متجلداً

فحسبت أول الأمر أن سالى نائمة ، ولكننى

رأيت جفניה يهتران ثم بفتحان ، ثم للتفتت

— وعلى فمها ابتسامة رقيقة — إلى المخلوق الصغير

الذى ضمته فى ساعدها ملفوفاً ، وبدأت تتكلم

فأنجيت لأسمع صوتها الخافت فقالت :

— ويل ... عزيزى ويل ... إننى تاركة طفلى

فى رعايتك ، وسيجيئ اليوم الذى يكبر فيه ويمش

ليرد إليك جزاء شفقتك العظيمة ، فليبارك الله

عليك وليحفظك جميعاً

وانطبق جفناها فى بطاء ، وبمد دقائق قليلة ماتت

فانه لم يكن مهملاً . فقد كانت مارجرى تعبده ، وقسم خالي وقته بين فقير النحل وبين الطفل الذي سمى باسمه . وإذا لاحظنا أن سلوكي حيال « ابني » كان غريباً فانهما لم يكونا يحددانني بما لاحظناه . وبعضى الوقت بدأت آلف وجود الطفل في البيت كما آلف وجود عصفور عزيز من عصافير الكنتاريا ، مخلوق يطعمه الانسان ويأويه ويبنى به ، ولكنى لم أشعر في قلبي نحوه بأى أثر لماطقة الحب

ولما أتم الطفل « بات » السنة الأولى من عمره أصيب خالي بصدمة ألزمته الفراش ستة أشهر ، كنت خلالها شديد الإعجاب بما جرى لما أبدت من صبر وعطف في أداء واجباتها ، إذ كانت تعرض الرجل المريض وتعنى بالطفل الذي كثرت حركته حريصة كل الحرص على نظافة كل شيء في البيت ، مؤدية في الوقت نفسه عمل الطاهى والخائض أيضاً . وكنت من جانبي أعمل كل ما أستطيع لمساعدتها ، وقد علمتني أن أزداد كل يوم احتراماً لها وإعجاباً بها . لقد كانت الأم والطاهية ومديرة البيت والمرضة ، فلو شئت لتقاضت أضاف الأجر الضئيل الذي كمننا تقدمه لها ، ومع ذلك لم تكن لتشكو من شيء وطراً على في الوقت نفسه شيء من التنوير ، فإذا كنت أمضى في أداء عملي في هدوء منابر لما كنت عليه من قبل ، فلم يكن السبب في ذلك الحزن الذي كمن في نفسي ، ولكن انحصار تفكيري كله في عملي . فقد شق الزمن جرح نفسي ، ولم تمد « سالى » غير ذكرى محبوبة تسكن أعماق قلبي . على أنني كنت أشعر دائماً أن شبح « بارنى » يلازمى دائماً في شخص ابنه الذي صار كلما تقدمت به الأيام يقترب شبهه من شبه أبيه ، فكانت له تقاسيمه وعيناه للسوداوان الراقصتان وشعره المجد ولم أعرف قط إذا كان خالي قد أدرك الحقيقة

أيقظني من هذه للتورة الجنونية وقع خطوة على عتبة الباب وخلعت أصابعى من عنق الطفل محملاً إجمال المجرمين عند ما دخلت مارجرى الحجره ، وإذا لم تلاحظ شيئاً غير عادى ذهبت إلى فراش الطفل وجلسته على ساعدها . وقالت :

— إنه جائع ... مسكين هذا الطفل اليتيم من أمه ، أخشى أن نكون قد أهملناه !

فلم أجب على قولها بشيء ، وقد أخذت أسترده قواى العقلية ، وبدأت أشمر بالمرق البارد يتدفق من جميع مسام جسمى . واستولى على إذ ذاك الشمر بالشكر وهران الجليل لما جرى فقد أنقذتني من أن أصبح قاتلاً لمخلوق ضيف برى . يجب أن أستجمع قواى ! فترنحت خارجاً من الحجره أشمر بالهواء البارد يصدم جبهتى

فلما خلوت إلى نفسى في حجرتى ذلك المساء لعنت ما بدا من حماقتى ، ذاك كان للطفل باللوم على موت « سالى » ولكنى أنا اللوم

لقد قال الطبيب إنها ماتت لأنها لم تكن راغبة في الحياة ، وأنا وحدى الذى أعرف السبب في ذلك . كنت أعلم أن قلبها قد دفن مع بارنى . لقد كانت تعتقد أنه معها الصادق الأمين ، ولم يكن هناك من يعلم غير ذلك سوى . وكان في مقدورى أن أقضى على حبها له بوضع كلمات . فلماذا كتمت ما علمته من أسر بارنى والفتاة « تيس » ؟ لم يكن لهذا التكم من سبب غير خوفى من أن أجرحها وأن أسور نفسى في عينيها إنساناً دينياً . لقد أطبقت شفتى وتركت الفتاة التى أحببتها تصعب محباً خائناً إلى العالم الآخر . كانت هذه هى الأفكار التى مررت حياتى بضعة أشهر بعد موت « سالى »

ولإجابة لطلب خالى بات سمينا الطفل « باريك » وعلى الرغم من أنني لم أهتم بأمر ذلك المخلوق الصغير

عدت بذا كرتى إلى الثمانية عشر شهراً الماضية التي عنيت فيها مارجرى بتربية الطفل وبتمريض خالى . فساءت نفسى : تراها كانت تفعل كل ذلك مقابل الأجر الضئيل الذى كانت تتقاضاه منا ؟ أم كانت تشمر هى أيضاً بأنها قد أصبحت أحد العناصر الأصلية فى ذلك البيت ؟

أيمكن أن تكون قد شعرت بشيء من العطف على رب البيت الفاتر للشعور الصامت الذى كان يروح ويحيى مشغولاً عن كل شيء غير مكترث لأحد ؟ تذكرت بمض حركات صغيرة يمكن أن تدل على هذا الذى افترضت ، وهنا شعرت كأن شرارة ملتهبة قد سرت فى مجموع كيانى ، فكان من الأمور للسارة أن أشعر بأننى موضع اهتمام إنسان ما وماجرى على وجه أخفى ، فقد تمودت أن أنظر إليها نظرة للصدقة الحارة . ولم يكن هناك من يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تملأه فى يلقى . إذن يجب ألا تناديه ووقفت إلى جانب مارجرى وهى ترقد الطفل مساء فى سريره ونظرت إليه وهو يرضع . وعلى حين فجأة طوقت مارجرى بساعدي وضممتها إلى صدرى وقلت :

— إنك يا مارجرى إن تتركى مخلوقين عاجزين تحت رحمة الأقدار ؟ ألا ترين أننا أشد ما نكون حاجة إليك ؟

فقلت وقد دهشت لحركة التودد التى بدت منى على غير انتظار :

— ولكن ماذا عسانى أفعل ؟

قلت :

— اصغ إلى يا مارجرى ! إننى لا أنظر إلى امرأة أخرى فى العالم نظرى إليك . وإنى لأعلم أن هذا الأمر مفاجئ ، ولكن أنظنين أنك تمنين بأمرى

أم لم يدركها فيما يتصل بنسبة هذا اللغلام ، فقد كان رجلاً ما كراً لا يتكلم كثيراً ولا ييوح بما يعلم . وقد مات بعد ستة أشهر من مرضه . وعدت يوماً إلى البيت بعد موته بأسبوعين فوجدت مارجرى تبكى . فسألتها فى لهفة :

— ما الذى يبكيك يا مارجرى وأى سوء حدث ؟ فقالت متأللة :

— إن هناك دائماً أناساً متطفلين ينتمزون للفرص للخوض فى أعراض غيرهم ، ولما كان خلاك على قيد الحياة يعيش ممناً لم يكن هناك ما يثير تطفل أمثال هؤلاء للناس . أما اليوم وقد مات ، فقد شرعوا يتحدثون فى أمرنا وبقولون إنه من غير لائق أن أعيش معك وأنا فتاة شابة تحت سقف واحد وليس ممناً ثالث ، لهذا أرى من الحكمة أن أغادر هذا البيت حتى أقطع السبيل على المتطفلين فقلت صرناً :

— ولكن الطفل ! إن به حاجة لمن يبنى بأمره ، وأنت الأم الوحيدة التى تفتحت عيناه على وجهها . إنك لا تستطيعين أن تتركينا يا مارجرى وما نحن بقادرين على أن نعيش بميدى عنك فزفرت الفتاة وقالت وهى تسرع بالدخول إلى غرفتها :

— إنه ليكسر قلبى أن أفعل ذلك ، فقد كنت عطوفاً على ، وأنا أحب « بات » للصغير كما لو أحببت ابنى الذى من لحنى ودى

شعرت عند سماع هذه الكلمات بشيء من الابعاء يستولى على نفسى ، فلم يخطر لي من قبل قط أن مارجرى يمكن أن تتركنا ، فقد كنت أنظر إليها منذ الساعة التى دخلت فيها بيتنا ، على أنها عنصر من العناصر الأصلية فيه ، وكأن ذلك كان أمراً مسلماً به ، فلما سمعت كلماتها الأخيرة

نفسى به قد حملنى على أن أقسم فى الحال وأنا أحمل
ابنى على ساعدى أننى مهما بلغ حى لهذا الطفل ما بلغ
فلن أميزه بمجمل أحرم منه « بات »

ولقد وفيت بهذا القسم فى أدق حدود الوفاء ،
وخصصت قسما من دخلى لتربيتهما وتعليمهما ، وكان
على كل منهما أن يودى واجباته المدرسية ، وإذا
لاحظت أن « فرانك » كان ميالا إلى الكسل ،
أمرت « بات » فى شدة ألا يساعده فى أداء واجباته
عنه ، وكان الطفل ميالا بطبيعته الخيرة إلى إسداء
هذه المساعدة لأخيه ...

ولما شب الطفلان أحزننى أن ألاحظ الفارق
الكبير بين أخلاق أحدهما وبين أخلاق الآخر . فقد
كان « بات » دائما باسما سعيدا ، وكان كريما
طموحا غير أنه كان على استعداد للمراك لأقل سبب ،
وكان يسلك حيال فرانك ، مسلك المحامى الذى
يدافع عنه غير سامح لانسان أن يحسه بسوء .

وكان ابنى على العكس من ذلك نحولا ميالا
إلى الأنانية ، فكان يستغل طيبة « بات » لمصلحته
كلما أراد ذلك . وإذا كانت الأمور تسير سيرها
الطبيعى كانت شخصيته تتميز بجاذبية شديدة ، وكان
فوق ذلك متميزا بذكاء عقله وقوة إدراكه وهما
أمران كانا يبشران بمستقبل عظيم .

وكان مما ضايقنى بعض الشيء أن فرانك
لم يكن يكثر قط بتغيير النحل ، وكان « بات » هو
الذى يبنى بها ويحفظ كل ما كنت أعلمه من شئونها
وكنت كذلك أنضابق حين أذكر أن « فرانك »
قد يرتفع شأنه فى الوجود ، وأن « بات » قد يقنع
بالحياة فى الزرعة على مثال ما قامت . على أن هذا
هو ما كنت أرجوه على كل حال ، فإن للسنين وإن
كانت قد خففت ما كنت أشعر به من البعض نحو

لقد أن تقبلنى زوجا لك ؟ أما أنا فساأبذل جهدى
فى سبيل إسعادك

فلم تنطق الفتاة بكلمة ولكنها هزت رأسها هزة
الرضا وقد فاضت عيناها بالدموع ، فأنجحت وطبعت
على شفيتها القبلة التى لم أطبعها على شفتى امرأة
غير أمى

لقد عرضت الزواج على مارجرى فى ساعة انفعال
ولكننى لم أندم على ذلك قط ، فقد كانت صديقة
مخلصة ، ورفيقا فرحا مؤنسا ، وقد تمودت على الزمن
أن أحبا حبا قويا

وكان « بات » كلما كبر أصبح من المستحيل
أن أتجاهله ، لقد كان طفلا نشيطا عتاجا إلى الملاحظة
المتمرة ، إذ كان ميالا للعبت بكل ما يصادفه ، فلم
أبئت أن لاحظت أنه لا بد من مراقبته خشية أن
يؤذى نفسه ، ولم يكن من طبي أن أهمل طمدا أداء
واجبى ، وما دامت الأقدار قد ألفت إلى أمر العناية
بهذا المخلوق فقد وجب على أن أحبه من كل خطر
يترص له

وبدا على الطفل أنه يحبنى حبا شديدا ، فكان
يتبعنى أين تنقلت فى البيت وكان يتعلق بى ويقبلنى ،
وكان حسنه ولطفه جذابين لا يملك الانسان نفسه
من التأثير بهما ، وكان يدعونى بلفظة « أبى » وما كان
ليستطيع أن يدعونى بغير ذلك

وما بلغ « بات » السنة الثالثة من عمره حتى
رزقت مارجرى بطفل هو ابنى من لحمى ومن دى ،
وما أستطيع أن أصف الشعور الذى استولى على نفسى
حين حملت المخلوق الصغير الجديد على ساعدى ، فقد
تجمع الحب والمطف اللذان حرمتهما « بات » وقاضا
دفعة واحدة على اللقادم الجديد

على أن روح العدل الذى كنت أتشدد فى أخذ

الأسهم ، وزادنى الربح طمعاً فاستخدمت فيها جميع أموالى وكان ذلك سبباً فى أن تعرفت بمستر بالدوين مدير البنك المحلى ، وكان الرجل ممن يهتمون بتربية النحل فكان يزودنى ويرقب ما يجري فى الفقير . فتوطدت بينى وبينه روابط الصداقة ، حتى إذا ترك « فرانك » المدرسة عهد إليه وظيفة كاتب فى البنك فتساء ابنى بذلك عجباً . وكان يقول لى عن عقيدة : إن بعض كبار رجالنا كانوا فى أول نشأتهم كتاباً فى المصارف

وكان بات إذذاك يعمل مخبراً فى الجريدة المحلية وكان الأجر الذى يتقاضاه ضئيلاً ، ولكنه كان قنوعاً به ؛ وكان يكنى لمبشته ، وكان يمضى أوقات فراغه فى كتابة قصص لم يوفق قط فى بيعها ، فكان كل ما يرسله منها يرد إليه ثانية ، وكنت أنا و« فرانك » نهزأ منه لاضاعته وقته فى ذلك اللبث . وقال له فرانك فى سخرية :

— ألا تهبط أيها القروى للكبير الجسم إلى الأرض؟ ألا تعرف الوقت الذى أصابتك فيه الهزيمة؟ وكان « بات » يتقسم من هذا الكلام غير مكترث ويقول إن روما لم تبن فى يوم واحد ، ثم يمضى فى الكتابة

ولم يمض إلا قليل حتى دهشت أنا وفرانك أكبر دهشة فى حياتنا ، فان إحدى قصص « بات » لم ترد إليه بل جاءه بدلها « شيك » بمبلغ من المال مصحوباً بكلمة تشجيع من محرر إحدى المجلات الواسعة الانتشار . ولقد كانت هذه هى الفرصة التى يستطيع أن يقول فيها : « لقد قلت لكم ذلك » ولكن لم يقل شيئاً وأظن أن سكرة الفرح أنسته أن يتكلم ، فثنى وعلى فمه ابتسامة عريضة راضياً بحظه فى الحياة ، وتولت الشيكات بعد ذلك

الطفل الغريب الذى حملنى مسؤولية أنا غير مرحب بها ، فانها لم تقض على هذا للبعض للقضاء التام ، فكنت أنمى أن يتم كل شئ طيب لابنى .

وكان « بات » أدق إدراكاً من أن يفوت عليه ما فى مملكتى من تميز ولكن لم يكن ذلك ليترك فى قلبه الصغير أى أثر غير طيب . ومن الغريب أن تكون مارجرى هى التى لم يبد من ناحيتها أى نوع من أنواع التفريق بين اللامعين ، فقد كانت تحب الولد للكبير الجميل للطيب القلب الذى تمتدأه ابنى حبها ابنتها على حد سواء .

وكان « بات » متقدماً على « فرانك » فى المدرسة عندما ماتت مارجرى ، وقد شعرنا جميعاً بالخسارة التى أصابتنا بفقدان عطفها وعنايتها وكان « بات » أشدنا حزناً وتأثراً . فكانت هى الشخص الوحيد الذى كان يفضى إليه بما فى نفسه ويركن إلى عطفه . وكان « بات » يدرس الصحافة ويقول إنه سيؤلف يوماً كتاباً يحملنا جميعاً على أن نفخر به ، وكانت مارجرى هى وحدها التى تشجعه ، أما أنا فكنت أهزأ بفكرته فما كنت لأنصوّر أن ذلك الطفل الرقيق الكبير الجسم يصلح لأن يجلس يوماً فيضمن أفكاره وآراءه كتاباً يقرأه الناس ، ولما ماتت مارجرى انقطع حديث « بات » بآماله ومطامحه

أما فرانك فكان بطمع فى النفوذ وفى الثروة . كان مفرماً بالمسائل المالية ، فكان كل مساء يدرس الصحيفة الاقتصادية التى تنشرها الجريدة ، غير ملتفت إلى شئ إلا أن هذا للنوع من الأسهم قد ارتفع وذلك النوع قد تدهور ، وكان يدرس الأسباب التى تؤثر فى السوق مفاخرأ بأنه يستطيع أن يتنبأ بما سيقع من ارتفاع أو هبوط ، وكان كلامه مغرباً حملنى على أن أستخدم بعض أموالى فى سوق

خطاباتي عن مكان وجودي ، ولكني أرجو أن تجد في قلبك مكاناً للعفو عني . وما أخشى على صحتك وحياتك لأنني واثق من أن « بات » العزيز سيسهر عليك ويمني بأمرك . وقد أستطيع أن أعود يوماً ما ، وإلى أن أتمكن من ذلك سأبقى ... ولديك المحب (نريك)

صمتني هذا الخطاب فجلست أنظر إلى الفضاء . إن هذا لا يمكن أن يكون صدقاً ، ابني فرانك لص لن يمضي زمن طويل حتى يقبض عليه كالوحش للضاري الأبد أن يكون هناك خطأ ما . ولكن لا . هذا كتابه وهذا خطه . أصبح لصاً ؟ ابني الذي أملت منه الكثير وهو الآن هارب يبحث عن مكان يأوي إليه حتى لا تقع عليه عين القانون

فكرت في الأيام التي كان فيها طفلاً وساءلت نفسي : أقصرت في تربيته ؟ ألم أعلمه تعلماً حسناً ؟ ألم ألقنه مبادئ الأمانة ؟ سألت نفسي هذه الأسئلة ورددت عليها إيجاباً

إذن أين موضع الخطأ ؟ إنه في أعماق نفسي ، لقد أخطأت حين اعتمدت على نصائحه وعملت برأيه . لقد رأي أني أرحم الكثير بايذاء للقليل ، فتغلغل الشره إلى نفسه ، وأراد أن يكون إنساناً ذا شأن . والمال يزود الإنسان بالقوة . لقد رأى كفى تقبض على مبالغ كبيرة من المال فأراد أن يحذو حذوي ويجمع المال لنفسه .

وإذ وصلت إلى هذا التلميل أحسيت رأسي حزناً وطاراً واعتمدت رأسي بيدي وبكيت في صوت مرتفع ..

ولم أشعر بأن « بات » قد دخل الغرفة حتى أحسست بساعده يطوق كتفي ، ونظرت فرأيت يرمقي في عطف وحنان . وقد قال في كثير من التلطف :

وأصبح بات غفوراً بمكائنه وبثروته التي تنمو على الاستمرار .

وبدأ الناس يتحدثون بأمر الفتى المؤلف ، وبهشونتي بابني النابغة ، وأخيراً أدركت أن ليس هناك من يعرف حقيقة نسبه ، فلم أر ما يحول بيني وبين الاشتراك معهم في الحديث

ولم يمض عامان على اشتغال فرانك حتى حلت بالبنك كارثة مفاجئة ضاعت فيها أموال أربابها وأصلاً كما ضاعت أموال غيري ، على أن هذه الكارثة على شدتها كانت أخف هولاً من الكارثة التي لحقتها بعد ثلاثة أسابيع والتي فاجأتني في خطاب مكتوب على سجل بخط فرانك وفيه يقول :

والذي العزيز

عند ما تقرأ هذا الخطاب أكون قد بددت آميلاً عديدة عن الوطن . ولقد لاحظت أنت عند ما كنت في البيت في نهاية الأسبوع أنني كنت كثيرًا ، وقد نقيت ما أديت لي من ملاحظة إذ لم تكن أعصابي لتحتمل مواجهتك بالحقيقة ، فأخبرك بأن ابنك ضرور ولص

وإنك لتعلم أنني كنت أشتغل بدفاتر البنك فترة من الزمن ، فلما وقعت الكارثة استولى على اليأس فكنت أرى أحلامي تتلاشى وما اقتصدت من المال بضيع هباء ، فلم أر أمامي غير سبيل واحد للخروج من ذلك المأزق ، فأخذت من أموال البنك مبالغ أربعة مائة جنيه معزماً بطبيعة الحال أن أردّها . ولكن هذا المبلغ ضاع هو أيضاً ، ولا بد أن يأتي اليوم الذي يطلع فيه مديرو البنك على ما حدث ، لذلك أنا أغادر البلاد قبل أن يكشف أمرى . وسأبدأ حياتي من جديد في أي مكان أستطيع العمل فيه ، وآمل أن أتمكن يوماً من رد المبلغ الذي سرقتة . ولا أكتب إليك بعد الآن خوفاً من أن تم

وأن يدب رنينها في أذني ، وأعرب من ذلك أنه خيل إلى أن الواقف إلى جانبي هي سالي نفسها ، تعمل لا تقاذ اسمي كما أتقذت اسمها فيما مضى ، فكان عرضاً منها لا أستطيع رفضه . ولكن « بات » لن يعرف ماذا قصدت حين قلت : « شكراً لك يا سالي »

مضت ست سنوات على هرب فرانك ، وعلى الرغم من أنني لم يصلني كلمة منه فأنني أشعر أنه بخير وإنني لأرجو أن يعود يوماً ، ولكنني لست وحيداً فان حياتي أمتع وأكثر اهتماماً مما كانت في أي وقت مضى من جراء التفاهم والمودة اللذين توطدا بين « بات » وبينى

تزوج « بات » بعد ذهاب فرانك بوقت قليل محضراً زوجها الجميلة إلى الزرعة كما أحضرت أنا أمه من قبل ، ولا يزال داثبا على للكتابة مقسماً وقته بين الآلة الكاتبة وبين فقير للنحل

وقد رأته منذ أيام — وأنا جالس في الشرفة — وهو يجمع الزهر الأزرق الذي تحبه النحل . وكانت ابنته الصغيرة مارجرى سالي جالسة على ركبتي . وقد غمرني شهور بالرضا والقناعة عند ما ضمتها إلى صدري فنظرت إلى ورأني أتبسم وقد سألتني :

— لماذا تبسم يا جدى ؟

فأجبته بكلام فارغ ، إذ كيف أستطيع أن أقول للطفلة إنني عند ما رأيت « بات » تصورت أن الأيام قد دارت إلى الوراء وإنني أرى سالي وبارنى يتسلمان لي

أكان الأمر كله خرافة شيخ مضطرب ، أم تراني قد سممت حقاً « بارنى » وهو يقول :

« يالك من صديق طيب للقلب يا ويل فليجرك الله خيراً » محمد الحميد محمد

— إنه لأمر قاس يا أبى ، ولكن هون عليك ولا تبئس

فسألته في صوت عال :

— أعرفت ما حدث ؟

— نعم فقد بعث إلى فرنك بخطاب

فسألته وقد شممت بشيء من الارتياح لوجود من يشاطرنى الأمي :

— وماذا عسانا نعمل ؟

فأجاب :

— لقد عملت كل ما يمكن أن يعمل فاقترأت خطاب فرنك حتى أسرعرت إلى البنك وتحدثت مع مستر بالهوين ، وحولت حسابي إلى البنك . ولما كان مالى يزيد كثيراً على القدر المطلوب ، وافق مستر بالهوين رعاية لك أن يترك الأمر يمر في هدوء ويبقى سرّاً مكتوماً

فقلت :

— أنت دفعت مالك الذى جنيت به بعملك لتتقذ اسم فرنك ؟

فأجاب للفتى :

— إنه اسمنا جميعاً

فلفت نظرى عنه صامتاً ، فقد ازدحت الكلمات في فمي ، وغص بها حلقى فلم تخرج من بين شفتي . لقد أردت أن أقول له إن الاسم الذى دنس ليس اسمه ثم إذا بي كأني أسمع صوتاً من الماضى يهمس في أذني ، وكان صوت « سالي » تكرر الكلمات التى قالها من قبل ، عند ما نظرت ببينين تفيضان بالدمع إلى طفلها الوليد وقالت : « سيأتى اليوم الذى يكبر فيه ويمش ليرد إليك جزاء شفقتك العظيمة »

لقد استولى على شهور لا أستطيع وصفه ، فغريب أن تصح نبوءتها بعد هذه السنوات الطويلة ،